٤ — على ضفاف القناة :

زفة ألنبي

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

قد يلفت هذا العنوان نظر القارئ الكريم ، ويوقعه فى شئ من الحيرة والارتباك ، والعجب والدهشة ، فمن هو (ألنبى) هذا ؟ ! وما قيمة (زفته) هذى حتى يفرد لها حديث خاص فى الرسالة الغراء ؟ ! ولكن سرعان ما يزول هذا الشعور المزيج من الحيرة والعجب والدهشة والارتباك عند ما يعلم أن (ألنبى) هو المعتمد البريطانى الذى أنزل للبلاء بالمصريين عامة أيام الحرب العالمية الأولى . وأن (زفته) هى عادة أصيلة فى بورسعيد والإسماعيلية ، يدين بها أهل هاتين المدينتين ، ويحرصون عليها كل عام حرصا شديدا

والزائر لإحدى هاتين المدينتين ابتداء من منتصف شهر فبراير ، يرى نشاطا عجيبا ، ويلفت نظره تماثيل لم يكتمل خلقها بعد ، معلقة على أبواب المنازل ، أو فوق سطوح البيوت غير المرتفعة ، فى الأحياء الوطنية بخاصة ، وفى الأحياء الأفرنجية كذلك حيث تسكن بعض الأسر المصرية . . تماثيل تكتمل خلقا يوما بعد يوم فى نظام رتيب وعمل متصل بلا انقطاع . فوق كل بيت تمثال (خواجة) يبدأ جسمه أولا عفلا من التصوير ، أى بدون رجلين ولا يدين ولا رأس ، ولا تكاد تمضى أيام على تعليقه على الأبواب أو فوق سطوح الدور ، حتى تصنع له الرأس ، ثم تبدو اليدان ، ثم الرجلان ، ثم توضع القبعة فوق الرأس ، ثم توضع فى فمه الكبير (بيبة) يمسكها بيده كأنما يدخن فى نهم وشره ، وصفاقة وبرود . . وكلما مر يوم ازداد هذا الخواجة أناقة ووضحت تقاطيع وجهه ، وظهر فيه البرود المكسوى المقيت بأجلى صوره ، وأوضح معانيه ، وبعد مدة يصل الفن المصرى (البلدى) إلى رجليه ، فيلبسهما حذاء لامعا ، وقد مسك فى يده مذبة (منشة) وقد يكون واقفا مستندا إلى خشبة خلفه أو بجانبه لئلا يسقط هنا أو هناك ، وقد يكون جالسا على كرسى يصنع خصيصا لهذا الغرض ، بحيث يضع رجلا على رجل ، فينسجم كرشه ، ويصبح مثال الصلف الوقح ، والبرود الحقير . .

وتكون هذه التماثيل فى القالب فى حجم الإنسان الطبيعى الذى يميل إلى النحافة قليلا ، حتى إذا جاء يوم شم النسيم تكون هذه التماثيل قد اكتملت خلقا وزينة ، وظهرت معالمها ، وبرزت خصائصها ، لأن هناك مجالا واسعا للتفاخر والتباهى بين الأهلين ، فمن كان تمثاله أكبر وأضخم ، وأدق وأفخم ، وأظهر وأعظم ، كان بالوطنية أجدر ، وبعطف الأجنبى الغاصب أحق وأولى ، واستحق بذلك تقدير زملائه وجيرانه ، وتهنئة أهله وأحبابه وخلانه ، ونال الشرف الذى ليس من السهل أن يناله إنسان ، أو يحصل عليه مخلوق كائنا ما كان . !

أما من أى شئ تصنع تماثيل هؤلاء (الخواجات) فهذا موضع العجب والدهشة ، أو بمعنى أدق هو الوطنية الحقة ، الكامنة فى نفوس هذا الشعب المصرى العجيب الذى لا تزيده الحوادث مهما اشتدت ، والخطوب مهما ادلهمت ، إلا شدة وقوة ، وصرامة ووطنية . . إن هذه التماثيل تصنع من القماش الرخيص أو الملابس القديمة . وتحشى بأقذر ما فى البيوت من ثياب رثة . وملابس مهلهلة ، وجميع ما يستغنى عنه الكبير والصغير من أحذية وغيرها ، لتحمل معنى الإهانة الصارخة ، والسخرية اللاذعة ، والاحتقار الشائن ، والثورة الحانقة . .

ولا يكاد ينبلج الضوء صبيحة يوم شم النسيم من كل عام ، حتى تحمل هذه التماثيل على عربات صغيرة من عربات اليد ، وتدفع إلى الأمام فى إهانة بالغة ، واحتقار كبير . . وبعض الأهلين يفتنون فى ذلك ، فيحملونها على (نعش) ويسيرون بها فى هيئة جناز ، إلا أنه غير صامت ، بل صاخب ثائر ، حيث يردد الكبير والصغير هذه العبارات التقليدية اللاذعة : « يا ألنبى يا بن حلنبوحة . . ؟ . . أمك ، ملآنه ملوحة » ويصاحب ذلك الترديد تصفيق منتظم حاد ، يشيع فى الجو لونا رهيبا من ألوان الثأر المكبوت ، والعاطفة المكفوفة التى يفرج عنها هذا الهرج والصخب والتشفى ، ولا تزال هذه الزفة الصاخبة الحاقدة ، تخرج

من كل بيت ، وتتلاقى هنا وهناك ، طائفة بالشوارع الكبيرة والصغيرة ، حتى تصل إلى كل رجا من أرجاء المدينة . فإذا انتهى الأهلون من هذه الوقفة ، ألقوا بما يحملون من تماثيل ، فى إهانة صارخة ، وثورة جامحة ، وأشعلوا فيها النيران التى تندلع ألسنتها فى وحشية وجبروت طاغ ، ، يذهب بتماثيل الشر الماحق ، ويمحو آثار الطغيان والضلال المبين إلى أعماق الجحيم ..!!

* * *

ومرجع هذه الوقفة كما أعتقد إلى فكرة وطنية متمكنة، وعقيدة عدائية خالصة ، نحو الإنجليز العدو الأول لمصر والمصريين . . ذلك أن اللورد اللنبى كان مندوباً سامياً فى مصر أيام الحرب العالمية الأولى ، وكان هذا الداهية سوط عذاب على المصريين جميعا ، وبخاصة على العمال المصريين ، وكان عنوان الصلف الإنجليزى ، والطغيان المروع ، وتجلى ذلك العداء الصارخ فى وضوح وجلاء ، حينما ساق العمال المصريين سوق الأنعام إلى بلاد الشام ، حيث عاملهم كما تعامل السائمة ، لقتال الترك والألمان .

والمصريون فى ذلك الحين يحنون حنينا كبيرا عجيبا إلى الأتراك ، ومرجع ذلك الحنين البالغ إلى الصلة الدينية التى تجمع بينهما . . صلة الإسلام التى جمعت بينهما وأدت إلى المصاهرة ، حتى لا يكاد يخلو حى من أحياء القاهرة ، ولا مدينة من مدن القطر من أسر تركية ، أو أسر مصرية تنحدر من أصل تركى ، حيث كانت مصاهرة الأتراك فى ذلك الوقت من دلائل العظمة ، وعنوان التقدم والرقى ، وعراقة الأصل ، وطيب المحتد . وقد كان الترك كذلك إلى عهد قريب زعماء المسلمين ، وقبلة الأنظار فى يوم ما ، فيهم الخلافة ظل الله فى الأرض، وإليهم تتجه القلوب فى أرجاء العالم الإسلامى بأسره ، وتواخى الوجود بأمة . .

ثم هم — أعنى المصريين — يحترمون الألمان ، ويحبونهم بالغ الحب ، ويرون فيهم مظهراً من مظاهر الرجولة الكاملة ، والاستقامة الرائعة ، والجد الصارم ، والعزم الحازم ، كما يرون فيهم صورة حية من صور العبقرية الملهمة ، وأنهم أئمة العلم والاختراع فى القرن العشرين بلا مراء ، ويعتقدون أنهم فى حربهم مع الإنجليز وحلفائهم ، إنما يحاولون القضاء على الخطر الاستعمارى الأكبر ، رمز الظلم والعدوان ، والغدر والنهب ، والبرود السكسونى اللعين ، وكيف كانوا يستولون على بضاعة الألمان ، ثم يضعون عليها علامات تجارية إنجليزية ، ويبيعونها على أنها إنتاج إنجليزى بأغلى الأثمان وأفدح الأسعار ، ولا يبالون بما يفتضح من أمرهم فى السوق المصرى بخاصة . . !

ولهذا كان من العسير على نفوس العمال من المصريين أن يساقوا سوق السائمة لحرب من يحبون ، وقتال من إليهم يميلون، وإذا كانت الدعاية المارقة قد استغلت مظاهر الحزن والنقمة ، حين يجند أبناء المصريين ، وجعلت من هذا الحزن والصوت المتعالى دليلا على عدم الوطنية المصرية ، والفرار من ميادين القتال، وأن أمة هذا شأنها لا تستحق الحياة بين غيرها من الأمم عزيزة مرهوبة الجانب ، بل تستحق حماية غيرها من الدول القادرة الناهضة ، حتى تنهض على ساقين ، وتفهم حقيقة الأمور كما يجب أن تفهم .. أقول إذا كانت الدعاية الإنجليزية المغرضة قد استغلت ذلك ، فإنما هو استغلال سيئ لأغراض سافلة ، والمصريون معذورون فى نقمتهم على ذلك التجنيد الذى لم يكن فى سبيل مصر والمصريين، وإنما كان لخير الإمبراطورية العجوز الشوهاء ، التى تربط مصر والمصريين بعجلتها ، وتدفع بالعمال والجنود المصريين إلى أتون الحرب المستعرة ، حيث تلتهمهم خطوط النار الأولى ، وتقضى عليهم القضاء الأخير ..

وإن هؤلاء الإنجليز لا يجهلون وطنية المصريين ، ولكنهم يتجاهلونها ، ويشيعون عنهم فى المحافل الدولية غير الحق والواقع، ولو أنصف هؤلاء الطغاة لأنصفوا هذا الشعب الذى يقدر العاملين ..!!

هذا هو اللورد اللنبى الذى جند من المصريين جيشا يحارب على غير رغبته الأتراك والألمان ، وكانت أكثر المناطق المصرية تضحية بأبنائها وبنيها هى مدن القناة دون ريب ، ولطالما فجع أهلوها بفقد من ذهب إلى الميدان .. ومن الغريب أن الظروف ساعدت هذه الدولة العجوز ، حيث قامت الثورات فى ألمانيا فاضطر الألمان إلى الانسحاب ، خشية تفاقم الخطر .. وقد انتهز اللنبى هذه الفرصة . فخرج على رأس جيش لقتال الألمان والأتراك فى الشام ، وادعى أنه هزمهم وطردهم وتعقبهم ، بينما الظروف وحدها هى التى دفعتهم إلى العودة والرحيل ..!!

الحرب الاقتصادية أضر

لندع الألسنة التي لاهي مصرية ولا عربية تدور في أشداقها تشيد بقوة الإنجليز وضرورة بسط سلطانهم على هذا الشرق المنكوب بالجهل والفقر والمرض

لندع أصحاب تلك الألسنة الذين لاهم مسلمون ولا شرقيون ، يثرثرون في مجالسهم يجرحون الوعي القومي في هذا الشرق الناهض ، ويلطخون أخلاق قومه بكل شائن مزري معيب

لندع الحكمة الآكلة تنهش صدورهم ، لأن في نهضة الشرق ، وفي قومه ، وقيامهم دفعة واحدة يدفعون عن عواتقهم أضرار الاستعمار وصلف المستعمرين وأثامهم تكذيبا صريحا للتقارير التي يرفعونها إلى سادتهم المستعمرين عن موات الشرقيين وسدومهم في اللذات والشهوات وإنكارهم الوطن والوطنية

لندع جانبا أصحاب تلك الألسنة المأجورة والضمائر المسخرة

وإذا كان ألذي قد فجع كل بيت مصري في عائله أو أحد أفراده ، فإنه هو الذي سيطر على الحياة السياسية المصرية حينا من الزمن ، ولا يجهل أي مصري أن ألذي هو الذي منع الملك فؤاد عليه رحمة الله أن يلقب بملك مصر والسودان ، ضنا باتحاد أبناء الوادي أن يتخذ له كيانا تترتب عليه نتائج لا يرضى عنها الإنجليز ، وحرصا على تفريق الكلمة ، وتوزيع الجهود . .

وأما بعد : فقد آن الأوان لأن يحطم المصريون هؤلاء الإنجليز ، ويقضوا عليهم القضاء الأخير ، ويتخلصوا نهائيا من هذه التماثيل . . تماثيل الشر والفساد ، ليتخلص الوطن من أعدى أعدائه ، ويتنفس الجميع في جو من الحرية والاستقلال . .

عبد الحفيظ أبو السعود
المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية

لأنها صارت قاب قوسين أو أدنى من القبر ، ولأنها الحالة الراسبة ، والنفاية المرذولة ، والبقية الباقية من جيل لا رده الله عاش بنوه في ذل الاستعمار ، وفقدان الثقة بالنفس ، وفي جماعة ليسوا من الإسلام والشرقية والعروبة في شيء ، وإنما هم مخاليق ضمائرهم خربة ، لا دين لهم إلا الجنيه ولا غاية لهم سوى الجنيه

لندع هذه الحفنة من الرجال الفانين ينفثون سمومهم في محيطهم الضيق ، لأن الأمم في نهضاتها لا تستمع إلى حشرجات المرضى ، ونزع الموتى ، ولننظر فيما يجب علينا عمله إزاء موقفنا الراهن

صحيح أن الحكومة درست أو هي تدرس ، ووضعت أو هي تضع خططا لمحاربة أعدائنا ومحتلي بلادنا ، ولكن الواجب يقضي بمعاونة الحكومة في إبداء الرأي الذي قد يكون غرب عن بالها ، ولذلك أقترح أن نكون عمليين في حربنا أي نسعى إلى كسب كل معركة نخوضها بعد درس وتدبر

الاستعمار والانتداب والاحتلال إنما هي أسماء مترادفة لمعنى « الكسب المالي » ؛ والإنجليز إنما هم تجار قبل كل شيء ، وأن حكوماتهم وأساطيلهم وسلطانهم رهن خدمة التاجر صاحب المعمل أو المصنع ، فما ضرنا لو صوبنا قذائفنا إلى صدر هذا التاجر الإنجليزي ومرقلنا دواليب مصنعه عن الدوران وعطلنا أيدي العمال عن الحركة ؟

المسألة بسيطة جدا ، وإن تنفيذها ليتوقف على معيار وطنية التاجر المصري ، وعلى إيمانه بحق بلاده وقومه في الحياة المستقلة ، وعلى رغبته الصادقة في محاربة الاستعمار والانتصار على المستعمر ، فإذا توفرت الرغبة وجاش الإيمان والوطنية في صدر التاجر المصري ، فما عليه إلا إبلاغ التاجر الإنجليزي أو الوسيط « القومسيونجي » إلغاء جميع ما طلب من بضائع وإيقاف تصديرها

وزيادة في الإيضاح أقول : إن التاجر المصري الذي يستورد بضاعته من إنجلترا واحد من اثنين :

الأول يستورد من صاحب المعمل رأسا بغير وسيط

والثاني يشتري أو يوصي على طلبه بواسطة «القومسيونجي»